

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَمَنْهَجُهُ فِي عِمَارَةِ الْكَوْنِ ١٢ رَجَبٍ ١٤٤٤ هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ إِكْمَالَ وَإِتْمَامَ دِينِنَا الْإِسْلَامِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَأُ وَنَهَا، لَوْ عَلَيْنَا نَزَلَتْ مَعَشَرَ الْيَهُودِ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَرَفَاتٍ، فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ.

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيِّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْبَبَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا خُلْفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أَيُّ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ، وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ الدِّينَ لَهُمْ تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، أَيُّ: فَارْضَوْهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّهُ عِبَادَ اللَّهِ: الدِّينُ الَّذِي رَضِيَهُ اللَّهُ وَأَحَبَّهُ، وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ رُسُلِهِ الْكَرَامِ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ. اهـ

لَقَدْ أَضَاءَ الْإِسْلَامُ قُلُوبَنَا، وَأَنَارَ عُقُولَنَا، وَصَحَّحَ عَقَائِدَنَا، وَقَوَّمَ أَخْلَاقَنَا، وَجَمَعَ شَتَاتَنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وَمِنَ الْقِيَمِ الْمُجْتَمَعِيَّةِ الَّتِي حَثَّنَا عَلَيْهَا الشَّرْعُ الْحَنِيفُ: إِعْمَارُ الْأَرْضِ، وَإِتْقَانُ الْعَمَلِ؛ فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ لِعِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وَحَثَّهُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ أَجْلِ عِمَارَةِ هَذِهِ الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ

مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، وَهَذِهِ الْعِمَارَةُ تَشْمَلُ كُلَّ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَفَائِدَةٌ لِلْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ؛  
فَالْمُسْلِمُ كَالغَيْثِ، أَيَّمَا حَلٍّ بِخَيْرٍ نَفَعٌ، وَأَيَّمَا حَلٍّ شَرٌّ فَلَهُ دَفَعٌ.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سُنَنًا كَوْنِيَّةً لَا تُحَابِي أَحَدًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي سُنَنِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ يَجِدُ فِيهَا الْعِظَةَ وَالْعِبْرَةَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

لَقَدْ قَصَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَيْنَا قِصَصَ الْأُمَمِ الَّتِي خَلَتْ، وَمَا حَلَّ بِهَا لِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ؛ لِنَتَّعِظَ وَنَعْتَبِرَ وَلَا نَفْعَلَ فِعْلَهُمْ؛ لئَلَّا يُصِيبَنَا مَا أَصَابَهُمْ.

إِنَّ التَّارِيخَ أَظْهَرَ مِيدَانِ تَتَجَلَّى فِيهِ سُنَنُ اللَّهِ ﷻ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ كَانَ نَبِينَا ﷺ يَتَأَثَّرُ بِالآيَاتِ الْكُونِيَّةِ.

- فَكَانَ يَتَأَثَّرُ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا. أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عَرَفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا؛ رَجَاءً أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتَ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ قَالَتْ: فَقَالَ:

«يَا عَائِشَةُ مَا يُؤْمِنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عَذَّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا﴾».

وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَفَاعَلُ إِذَا رَأَى الْهَيْلَالَ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَنَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهَيْلَالَ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَهْلُهُ عَلَيْنَا بِالْيُمْنِ وَالْإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالْإِسْلَامِ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ».

وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَفَاعَلُ إِذَا نَزَلَ الْمَطْرُ. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَصَابَنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَطْرٌ، فَحَسَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَوْبَهُ، حَتَّى أَصَابَهُ مِنَ الْمَطْرِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ صَنَعْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لِأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى».

وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَفَاعَلُ إِذَا وَقَعَ الْكُسُوفُ. أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْكَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْرُ رِدَاءَهُ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلْنَا، فَصَلَّى بِنَا رَكَعَتَيْنِ حَتَّى انْجَلَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا، فَصَلُّوا، وَادْعُوا، حَتَّى يُكْشَفَ مَا بِيَكُمُ».

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ دَعَانَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لِلتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي الْآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِهِ»: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾: يَأْمُرُ تَعَالَى بِتَدَبُّرِ كِتَابِهِ، وَهُوَ التَّأَمُّلُ فِي مَعَانِيهِ، وَتَحْدِيقُ الْفِكْرِ فِيهِ، وَفِي مَبَادِيئِهِ وَعَوَاقِبِهِ، وَلَوَازِمِ ذَلِكَ، فَإِنَّ تَدَبُّرَ كِتَابِ اللهِ مِفْتَاحٌ لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَبِهِ يُسْتَنْجَبُ كُلُّ خَيْرٍ، وَتُسْتَخْرَجُ مِنْهُ جَمِيعُ الْعُلُومِ، وَبِهِ يَزْدَادُ الْإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ، وَتَرْسَخُ شَجَرَتُهُ، فَإِنَّهُ يُعَرَّفُ بِالرَّبِّ الْمَعْبُودِ، وَمَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَيُعَرَّفُ

الطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ، وَصِفَةَ أَهْلِهَا، وَمَا لَهُمْ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَيُعْرَفُ الْعَدُوُّ الَّذِي هُوَ الْعَدُوُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَالطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَى الْعَذَابِ، وَصِفَةَ أَهْلِهَا، وَمَا لَهُمْ عِنْدَ وُجُودِ أَسْبَابِ الْعِقَابِ.

وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَأْمُلًا فِيهِ ازْدَادَ عِلْمًا وَعَمَلًا وَبَصِيرَةً؛ لِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَحَثَّ عَلَيْهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِإِنزَالِ الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

وَمِنْ فَوَائِدِ التَّدْبِيرِ لِكِتَابِ اللَّهِ: أَنَّهُ بِذَلِكَ يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَى دَرَجَةِ الْيَقِينِ وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ يَرَاهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُؤَافِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَتَرَى الْحِكْمَ وَالْقِصَّةَ وَالْإِخْبَارَاتِ تُعَادُ فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، كُلُّهَا مُتَوَافِقَةٌ مُتَّصِدِقَةٌ، لَا يَنْقُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَبِذَلِكَ يُعْلَمُ كَمَالَ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأُمُورِ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أَيُّ: فَلَمَّا كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ فِيهِ اخْتِلَافٌ أَصْلًا. اهـ

وَقَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ «مِفْتَاحِ دَارِ السَّعَادَةِ»: فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ لَأَشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بِتَفَكُّرٍ حَتَّى مَرَّ بِآيَةٍ وَهُوَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ كَرَّرَهَا، وَلَوْ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَلَوْ لَيْلَةً، فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفْهِيمٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خْتَمَةٍ بِغَيْرِ تَدْبِيرٍ وَتَفْهِيمٍ، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الْإِيمَانِ، وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَةُ السَّلَفِ، يُرَدِّدُ أَحَدُهُمُ الْآيَةَ إِلَى الصَّبَاحِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّى الصَّبَاحِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفَكُّرِ هِيَ أَصْلُ صِلَاحِ الْقَلْبِ.